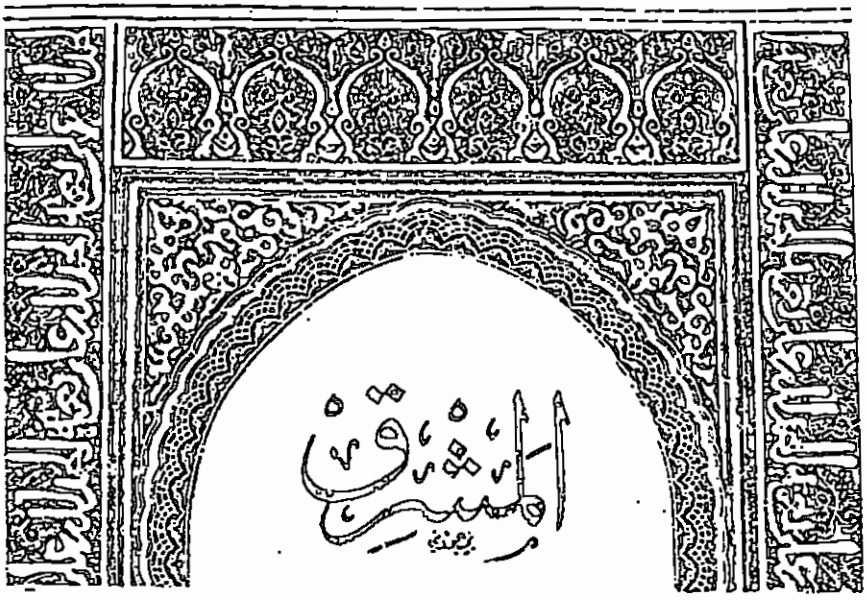

السنة الثلاثون

حزيران ١٩٣٢

الرهبنة البندكتية

في فلسطين

بقلم الخوري اسحق ارملة السرياني

بلغ الاب انسلمس شياس لاسال البندكتي ، رئيس الاكليريكية السريانية في جبل الزيتون ، الخامسة والعشرين من حياته الكهنوتية . فحوّل تلامذته وعارفو فضله على الاحتفال بيوبيل كهنوته الفضي في ٢٥ ايار اقرارًا بجميله واعترافاً بجهوده في سبيل تلك الاكليريكية المعروفة باكليريكية مار افرام الملفان ومار بندكتس ابي الرهبان . وصاحب اليوبيل هذا ما كفاه ما صرفه من العناية في تمزيز تلك الاكليريكية وتقويم حياتي طلّابها الروحية والمادّية ، بل أخذ على عاتقه ادارة التعليم العالي في دير الشرفة ايضاً طبقاً لنيّات صاحب الغبطة مار اغناطيوس جبرائيل ، البطريرك الانطاكي ، والسادة الاساقفة الجزيل احترامهم . فرأينا ان نغتنم الفرصة لننشر كلمة عن الرهبنة البندكتيّة في فلسطين سابقاً وحاضرًا ، نختمها بلمعة عمّا اتاه صاحب

اليوبيل المفضال من جلائل الفصال التي تخلد لغيرته أعذب تذكار على مرور الاجيال .

١

الرهبنة البندكتية في فلسطين سابقاً

لا خلاف في ان الرهبنة البندكتية هي امّ الرهبنات القانونية في بلاد المغرب. فان القديس بندكتس (٤٨٠ – ٥٤٣) اول من احترث تربتها وغرس حديقتها في سياكو بايطالية ، وحوّل بريّتها المقفرة وجبالها الجرداء الى جنات خضراء وغابات شجراء انتجت زهوراً زكية وثماراً حلوة شهية لذّذت ابناء الكنيسة الكاثوليكية بعذب اريجها ، وأبهجت روّاد العيشة النسكية بحلو مذاقها ، وأثلجت صدور الأدباء بما خلفته في اديارها ومعاهدها من الآثار الكتابية الثمينة والمآثر الدينية والادبية القيمة ، حتى اصبحت تلك الديورة بعبّادها وزهّادها تفاخر السماء بنجومها وسيّاراتها .

على ان مار مبارك او بندكتس أسس في اول امره اثني عشر ديراً أعظمها دير كاسين عام ٥٢٩ ، ونظم لرهبانه قوانين ودساتير محكمة ، واقام في كل منها رئيساً تولّى هو الرئاسة العامة عليها جميعاً . ولم يقف عند هذا الحدّ ، لكنه انشأ كذلك اديارا للراهبات في لحف جبل كاسين ، ونصب شقيقته القديسة سكولستيقا رئيسة عليها .

وما مرّ القليل حتى ازدادت الاديار البندكتية غرباً وشرقاً ، وناهت على الثلاثة آلاف دير بلغ عدد المنضوين اليها سبعة وخمسين الف راهب وراهبة تجرّدوا قاطبةً للاعمال الصالحة فاعتكفوا على الاصوام والصلوات والمطالعات ، ونصبوا عقولهم لنصرة الدين القويم وخلاص النفوس المشتراة بالدم الكريم ، وبالغوا في ترقية العلوم والفنون معتقدين ان العلوم الحقة الراهنة لا ينالها الّا من استحقر اللذات الدنيا واستأثر بالغاية القصيا . فغدوا نبراساً للفضائل يستضاء به وانموذجاً للمعارف يقتبس عنه . وأحصي منهم سبعة وخمسون الفاً في سفر الابرار القديسين ، في جملتهم عشرون حبراً زينوا عرش الخلافة الرسولية الرومانية بسموّ

مداركهم وشريف مناقبهم ، وخمسة ملافنة انعشوا الكنيسة بنفثات اقلامهم ، وعدّة اساقفة رعوا قطيع السيد المسيح بحكمتهم وتعاليمهم .

وما بغيتنا في هذه العجالة استيفاء جميع مناقب الرهبان البندكتيين وتعداد مؤسساتهم وأعمالهم بأسرها . لكننا أحببنا ان نثبت كلمة وجيزة عمّا انشأوه من الديورة والملاجئ في فلسطين نستقي معظمها من مجموعة الآبآتي الورع بندكتس غريادور مثنى الاكليريكية السريانية في اورشليم ، التي نشرها عام ١٩١٢ بعنوان : « اديار البندكتيين القديمة في الشرق »[1] فنقول :

يعود الفضل في تأسيس اول مركز للبندكتيين في اورشليم الى الحبر العظيم البابا غريغوريوس الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤) كاتب سيرة مار بندكتس ابي الرهبان . فهو الذي بعث الى الاب فيلبس البندكتي برسوم يأمره ان يستأنف بناء دير البندكتيين بما تركه الاب فروبس سالفه من النقود . وشفع الحبر الروماني مرسومه هذا بخمسين قطعة ذهبية ارسلها الى الاب المومأ اليه انجازاً للعمارة . ودير البندكتيين هذا اورد ذكره السائح انطونان دي بليزانس (de Plaisance) في القرن السادس مصرّحاً بان موقعه كان محاذياً لكنيسة يوسطنيان المعروفة بكنيسة مريم العذراء . وكان يشتمل على مأوى فسيح الارجاء يضمّ بين جدرانه تارة ثلاثة آلاف وطوراً خمسة آلاف من الزوّار والفقراء والمرضى ، يتولّى الرهبان والراهبات القيام بأمورهم والتوسعة عليهم . وظلّ البندكتيون يشتملونه حتى السنة ٦١٤ ، اذ دوّخ الفرس المدينة المقدّسة وقوّضوا زهاء ثلاثمائة مأوى مع ما قوّضوا من الديورة والكنائس .

وهذا المأوى او الدير البندكتي كان مصاقباً للمأوى الذي شاده فيما بعد كرلس الكبير († ٨١٤) الذي وثق عرى الاتفاق بين فرنسة وهرون الرشيد († ٨٠٩) فأسس في القدس مركزاً لدولته ، ومركزاً آخر للبندكتيين . وابتنى ثلاثة ديورة او ملاجئ ، أخصّها واولها : دير مريم العذراء المشهور بدير اللاتين ، كان موقعه جنوبي شرقي كنيسة القبر المقدّس . اورد ذكره في نواحي السنة ٨٦٥ برنردس السائح بقوله : « حللنا في مأوى الامبراطور كرلس المجيد .

(١) *Les Anciens Monastères Bénédictins en Orient.*

موقعه في وادي يوشافاط . يشتمل على نزل للزوّار الفرنج وعلى كنيسة مبنية على اسم مريم العذراء وعلى « مكتبة » شهيرة واثني عشر مسكناً وعلى حقول وكروم وحدائق » . ويُستنتج من ذكره « المكتبة » ان ذلك الدير كان حافلاً بالمصاحف الثمينة طبقاً لتقاليد البندكتيين ، فكانوا يطالعونها اثناء الفراغ من اعمال الزهد والفلاحة . ثانيها : كنيسة بيت لحم وقد ذكرها ريّان (Riant) بقوله : «صادفت في كنيسة بيت لحم خمسة عشر راهباً بندكتياً في عهد كرلس الكبير يخدمون كنيسة مريم العذراء المشهورة يوم ذاك ببيت القديس ايرونيمس » . ثالثها : دير الجمانية ، وكان البندكتيون ايضاً يشغلونه في عهد كرلس الكبير يحرس ستة منهم كنيسة ضريح العذراء ، وغيرهم يخدمون مأوى حقل الدم ، كما اثبت غير واحد من المؤرّخين المعاصرين .

ظلّت هذه المراكز الثلاثة في حوزة البندكتيين حتى عهد الحاكم خليفة مصر ، فقوّضها مع ما قوّضه من ابنية المسيحيين عام ١٠١٠ وأراد الرهبان على الجلاء عن فلسطين . لكنه في اوائل القرن الحادي عشر أقبل منهم عدد كبير من امالفيتا يرئسهم القديسان بونون وسيمون البندكتيان . فبونون سار في اول الامر الى مصر وجبل سينا نحو السنة ١٠٢٥ . وأسس ثمّ ديورة لرهبانه . ثم شخص الى فلسطين عام ١٠٣٥ ورمّم دير بيت لحم وغيره . اما سيمون فقد وصل الى اورشليم عام ١٠٣٠ في عدّة زوّار من ايطالية وحلّوا في دير بيت لحم ، ورمّموا كنيسة العذراء ، او هي كنيسة اللاتين قرب كنيسة القيامة . وقد ذكرها المؤرخ غوليلمس اسقف صور (١ : ١٨) بقوله : « ان تجّاراً من امالفي كانت تصلهم بخليفة مصر صلة حبيّة قدموا الى اورشليم واستأذنوه في انشاء دير للرهبان وكنيسة ومأوى للضيوف والزوّار ومأوى آخر للنساء اللاتي كنّ يتوافدن زرافات من ايطالية للتبرك . واستحضروا راهبات بندكتيات عهدوا اليهنّ العناية بامورهنّ وابتنوا لهنّ كنيسة على اسم مريم المجدلية عُرفت بكنيسة مريم الصغرى » .

ويتلخص من قول غوليلمس هذا ان تجّار امالفي انشأوا ثلاث كنائس وثلاثة مراكز قرب كنيسة القبر المقدس : اولها كنيسة مريم العذراء ومركزاً

للرهبان . ثانيها كنيسة مار يوحنا ومأوى للرجال . ثالثها كنيسة مريم المجدلية ومأوى للنساء . وتولّى ادارة تلك الكنائس والمراكز رئيس واحد بندكتي كان اسمه في عهد الصليبيين جيرَرْد ، امتاز بوفرة عطفه على البائسين وجزيل اعتنائه بالمرضى . اما رئيسة دير الراهبات فكانت تدعى يومئذٍ اغنيسا .

وكان موقع كنيسة مريم اللاتينية على ما ذكر غوليلموس عام ١٠٣٠ في حارة النصارى، تجاه باب كنيسة القيامة، على مسافة رمية حجر منها . وقد أثبت بعض الكتبة استنادًا الى تقليد سريانيّ قديم ان سيدتنا مريم العذراء الجليلة كانت واقفة في ذلك المكان ، حين آلام ابنها الفادي . وكتب غيرهم انه في السنة ١١٦٠ و ١١٧٠ كان تجاه كنيسة القيامة كنيسة جميلة على اسم مار يوحنا المعمدان ، يصاقبها نزل للزوار والفقراء والمرضى ، ودير للرهبان فيه كنيسة على اسم العذراء ايضاً . وكان مركز هذه الكنائس الثلاث محلّ ما ابتنى الالمان البروتستان كنيستهم في عهدنا .

اما دير البندكتيين الكبير فقد انشأه في القرن الثاني عشر فرسان مالطة المعروفون باخوة مار يوحنا او فرسان رودس . وكانوا في بداءة امورهم يتبعون قانون مار بندكتس ، تحت رئاسة الاب جيرَرْد البندكتي المذكور ، ويتولون خدمة المرضى ومساعفة المحتاجين ومساعدة الزوّار ، وكانوا يتردّون بثوب أسود مُعلَّم بصليبان بيض حين اقامتهم الفروض البيعية . وقد أبلوا بلاءً حسناً في ساحة الحروب دفاعاً عن حقوق المسيحيين وصيانة لكنائسهم واديارهم .

وما عدا ذلك كله فكان للبندكتيين ديرٌ في وادي يهوشافاط عُرِفَ بدير ضريح والدة الله (ستي مريم) . وقد احتجبت كنيسته حتى عام ١٠٩٩ ، فاستحوذ عليها الصليبيون ، وفوّض غودفروا فاتح القدس المجيد ادارتها الى الآباء البندكتيين ، وترأس عليها القديس هوجس († ١١٠٩) البندكتي . وانتهى تأسيسها او بالحريّ تجديدها عام ١١١٢ ، وكانت مدبجة باجمل التصاوير ، مزدانة بافخر الرياش واثمن المصابيح ، يحاذيها عام ١١١٥ نزلٌ للزوّار والفقراء والمرضى .

وكان رؤساء دير يهوشافاط يسوسون في عهد الصليبيين عدّة ديورة واثنتي

عشرة كنيسة في نابلس والجليل وسفح جبل الكرمل وطبرية ويافا وصفورية وقيسارية وعكا وصور وصيدا وانطاكية . وكان بعضهم يحرثون بقمة الوادي ويسقونها بمياه عين شيلوحا التي كانت تخصهم ايضاً . ولعل الربوة التي ابتنوا فيها ديرهم المعروف اليوم بدير مار افرام ومار مبارك المطلة على ذلك الوادي كانت تخصهم ايضاً في ذلك العهد .

ونضيف الى ذلك ان تنكريد فاتح انطاكية البطل الشهير لمّا انتهت اليه الولاية على بلاد الجليل ورمّم كنائس الناصرة وطبرية وجبل تابور عهد أمرها الى الرهبان البندكتيين ، واقام جيرَرْد المذكور رئيساً على دير جبل تابور عام ١١٠٠ . وجيرَرْد هذا حضر مجمعاً عُقد في اورشليم في كنيسة القبر المقدس عام ١١٠٢ ، ثم ارتقى الى مطرانية بلاد الجليل وطبريّة في ٢٩ تموز ١١٠٣ بتفويض الحبر الروماني البابا پسكال (÷ ١١١٨) . بيد ان المسلمين استحلوا ذلك الدير في ٤ ايار ١١١٣ ، واستباحوا اثنين وسبعين راهباً من رهبانه وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً . لكنّ البندكتيين عادوا عام ١١١٥ الى ذلك الدير ورمّموه وشفلوه . وحضر بطرس رئيسهم مجمع نابلس عام ١١٦٠ . ونجح دير تابور نجاحاً باهرًا في عهد رئيسه يوحنا (١١٨٠ — ١١٨٣) حتى اذا كانت السنة ١٢٥٥ أُلجئ رهبانه اجمع ان يغادروه كما غادروا ايضاً ديرهم الكبير في وادي يهوشافاط عام ١٢٨٧ ، وارتحلوا الى طرابلس فمكّا . ثم عادوا باسرهم الى مسينة عام ١٢٩١ . وكان ذلك آخر العهد بهم في بلاد المشرق . وظلّ رؤساء دير مسينة يوقعون امضاءهم الواحد تلو الآخر بعنوان « رئيس دير يهوشافاط » زمناً طويلاً .

وعلى أثر ارتحال الرهبان البندكتيين عن القدس استولى السريان على دير يهوشافاط . وكانوا يقيمون في كنيسة ضريح العذراء الصلوات والطقوس السريانية حتى السنة ١٣٩٢ . فاستحوذ عليها حينئذٍ الرهبان الفرنسيسيون . ثم استولى عليها في ايامنا الروم والارمن والسريان والقبط المنفصلون عن الكرسي الروماني المقدّس .

وما عدا اديار البندكتيين ومعاهدهم في فلسطين ، فقد أسسوا ديراً على

ابسم مار بولس الرسول في انطاكية . وكانت كنيسة ذلك الدير تشتمل على ناووس مدبجة ارضه بالفسيفساء . وقد ورى غير واحد من المؤرخين ان الانا المصطفى كان يكتب رسائله في ذلك المكان ويبعث بها الى المؤمنين . وعرفنا من رؤساء ذلك الدير رُبرت عام ١١٤٠ ، فيطرس عام ١١٦٨ ، فنولك عام ١١٨٣ فبرنردس عام ١١٩٧ . وهكذا تسلسلوا حتى السنة ١٢٦٨ ، ثم تركوه وعادوا الى ايطالية .

اما الراهبات البندكتيات فكنّ يشغلن دير القديسة حنة ام العذراء مريم (الصلاحية) . وقد شاد فيه الصليبيون كنيسة فخمة وانقطعت اليه بنت بغدوين الثاني ملك القدس عام ١١٣٠ ، ثم انتقلت الى دير لعازر في بيت عنيا . واقتفت آثارها ثاودورا الملكة ارملة بغدوين الثالث . ولما فتح صلاح الدين الايوبي بيت المقدس عام ١١٨٧ ، حوّل تلك الكنيسة الى جامع ، وذلك الدير الى مدرسة ، ثم امتلكها الفرنسيون وولوا عليها الآبا الافريقيين المعروفين بالآبا البيض .

وكان دير لعازر في بيت عنيا يشتمل في القرن الثامن على كنيسة جميلة عُرفت بكنيسة « مفاوضة يسوع تلاميذه » ، وقد استحوذ عليها راهبات مار بندكتس عام ١١٣٨ ، وابتنى البابا قلسطينس الثاني († ١١٤٤) كنيسته عام ١١٤٣ ، بمساعدة فولك ملك القدس . وقد ترأست على الدير الام مَتيلد البندكتية ، وخلفتها الام مليسّند ، فأغنته بالاواني الذهبية والفضية والحلل الثمينة الفاخرة . وقام بعدها شقيقتها يوديت ، وخلفتها الام حوّا (١١٧٣ — ١١٧٥) . وفي السنة ١١٨٧ خرج الراهبات عنه قسرًا الى عكّا ثم عُدن الى اوربة .

وكان للراهبات البندكتيات ديران آخران احدهما في انطاكية عام ١٢٦٤ ، والآخر في جبل الاسود تجاه تلك الحاضرة .

على هذا الاسلوب اضطرّ البندكتيون الذين تولوا حراسة الاراضي المقدسة نيفاً وستة قرون ان يتركوا أديارهم وملاجئهم عام ١٢٩١ ويرتحلوا الى اوربة . ونابَ منابهم اخوتهم رهبان مار فرنسيس .

٢

الرهبنة البندكتية في فلسطين حاضراً

ما برح ابناء الرهبنة البندكتية والملّة السريانية جماء يرطبون السنتهم بالاثنية الطيّبة على ذلك الحبر الكبير البابا لاون الثالث عشر الحميد الاثر الذي أبدى لهم فرط حبه الابوي فسوّغ لهم ان يتولوا كنيسة ابي غوش ، ويبتنوا اكليريكية لابناء الملة السريانية في اورشليم . بناء عليه أوفد قداسته في ٩ كانون الثاني ١٨٩٩ الى القدس الشريف الابوين برنرد وتيودور البندكتيين وفوّض اليهما ، طبقاً لمرسومه المؤرخ في ٤ تشرين الثاني من تلك السنة ، حراسة كنيسة ابي غوش ، وهي قرية العنب او قرية يعريم (١ ملوك ٦ : ٢٠—٢٣) البعيدة عن اورشليم ١٣ كيلومترًا على طريق يافا . وكان المسلمون قد استحلّوها منذ السنة ١٤٨٧ . وهي كنيسة فخمة تحاكي قلعة حربية ابتناها الصليبيون على اسم ارميا النبي في اواسط القرن الثاني عشر ، واتخذوها فيما يُظَنّ معقلًا يتحصنون به اتقاء من غارات العدوّ . وهي مربعة الشكل ذات ثلاث اسواق راكزة على اربع سوار مربعة ضخمة . وكانت جدرانها مدبجة بالتصاوير النصرانية والنقوش الرمزية تعفت آثارها على تراخي الايام ، ولم يبقَ منها سوى آثار صورة قيامة السيد المسيح في صدرها . يتوسطها ناووس ينحدر اليه الزائر بدرج تجري فيه عين ماء هي عين قرية عمّاوس (لوقا ٢٤ : ١٣) كما اثبت غير واحد من المؤرخين . وقد عثر البندكتيون في ذلك الناووس على حجر نُقشت عليه كتابة لاتينية تشير الى فرقة عسكرية من الفرق الصليبية كانت تشغل تلك الكنيسة التاريخية الجميلة .

وصل اذًا الابوان برنرد وتيودور الى اورشليم ، وحلّا في نزل الآباء الفرنسيسيين ، ورحب بهما السيد البطريرك لودفيك بياقي ، ومسيو اوزيب القنصل الفرنسي ، وحارس الاراضي المقدسة . وما عتم ان زارا قرية ابي غوش وتفقدا اخربتها وضواحيها وصمما على ترميمها غير مكترثين لما يعترض ذلك من الصعوبات والمتاعب والكلف .

واتفق ان السيد اغناطيوس افرام الثاني رحماني ، بطريرك السريان الانطاكي

الاب السلمس شنياس لاسال

رئيس دير الاباء البندكتيين والاكليريكية السريانية

زار الاعتاب الرسولية عام ١٨٩٩ ، على اثر ارتقائه الى السدة البطريركية عام ١٨٩٨ ، فالتمس من الاب الاقدس البابا لاون الثالث عشر ان يفوّض الى الآباء البندكتيين ابتناء اكليريكية في اورشليم يتلقى عنهم فيها العلوم الكهنوتية مَن يختارهم الله تعالى للدعوة المقدسة من ابناء ملته السريانية . فما كان من ذلك الحبر الكبير الّا ان تنازل واجاب الى ملتمس البطريرك الانطاكي واصدر رسالة كتب فيها ما خلاصته : « اني احمد الله عزّ وجل واثقاً بان يؤيد مشروعي هذا ويكمله . . . هذه مدرسة خامسة اشيدها حباً لرجوع خرافي في المشرق الى الحظيرة البطرسية » .

بعد هذا يمم السيد رحماني فرنسة ، وزار عدة ابرشيات فيها ، وعرض على نيافة الكردينالين لنجينو وليكو وعلى مسيو دلكاسه وعلى رؤساء الرهبنة البندكتية رغبة الحبر الاعظم ورغبته هو في انشاء هذا المشروع الخطير . فأبدى الجميع ارتياحهم الى هذا العمل المجيد ووعدوه بصرف المساعي للنهوض به . بناء عليه طفق رؤساء تلك الرهبنة المباركة يقصدون مؤمني فرنسة المتازين بالسخاء والمكارم ، فجمعوا عام ١٩٠٠ مبلغاً من الاموال ارسلوه الى الاب برنرد المومأ اليه في مشترى الربوة المشرفة على عين شياوحا وعلى وادي يهوشافاط مكان ديرهم القديم . وفي ٢٦ آب ١٩٠١ ، قرّر الكردينال رئيس مجمع نشر الايمان المقدس استنادًا الى تفويض البابا لاون الثالث عشر افتتاح الاكليريكية السريانية في القدس . وتم اتفاق الحبر الروماني وكردينال البروبغندا والبطريرك الانطاكي والسفير الفرنسي في رومية على ان يبتني البندكتيون الفرنسيون كنيسة في القدس واسعة متقنة على طراز الكنائس السريانية تقام فيها الصلوات الفرضية والاحتفالات الدينية باللغة السريانية ، ويؤسسون الى جانبها معهدًا اكليريكياً يلقنون فيه طلّاب الدعوة المقدسة ما عدا الفرنسية اللغتين السريانية والعربية والطقوس البيعية .

بناء على ما تقدم غادر الاب بنوا غريادور الفاضل عاصمة الكثلكة ، ووصل الى القدس في ٤ ايلول ١٩٠١ حاملًا رسائل التفويض في ابتناء الاكليريكية السريانية وترميم كنيسة ابي غوش . ويقصر اللسان عن وصف ما

عانى هذا الاب الغيور الوزع من الاتعاب والمشقات في عنفوان الامر وما عالجه من الهموم والضيقات في سبيل هذا المشروع الجديد . فانه على رغم ما احاق به من الصعوبات لبث كالطود الراسخ لا تزعزعه العواصف ولا تلوي به الحوادث يردّد مرارًا في كلتا حالتيَ عسره ويسره آية داود النبي : «ألقِ على الرب همك وهو يعولك» (مز ٥٤: ٢٣) . ومن ثم جرّد العزيمة على انجاز العمل ، فابتنى في مفتتح الامر غرفاً وان شئت فقل اكواخاً حقيرة من اللبن ثوى بها هو وستة من رهبانه وجعلوا يقضون معيشتهم بتقنعٍ مكتفين بالتزر القليل طبقاً لعاداتهم لا يحرسهم الّا الامل والرجاء كمريضٍ يتجرّع مرارة الدواء طمعاً بالحصول على حلاوة الشفاء . وما كاد ينهي الاب غريادور ابتناء تلك الاكواخ حتى أُلجئ ان يقصد فرنسة المحسنة الكريمة في استئناف عمله انجازًا لرغبات ابي المؤمنين والبطريرك الانطاكي . وعاد عام ١٩٠٣ الى اورشليم مجرور الفؤاد لاهجاً بأطيب الثناء على اريحية الامة الفرنسية أمّ المكارم الغراء واجتمع اليه يومئذٍ ستة رهبان جدد فصار عددهم اثني عشر راهباً ، بينهم الاب انسلمس شياس لاسال الرئيس الحالي . فكتب من فوره الى السيد رحماني يبشره بعقد النية على قبول طلبةٍ من ابناء الملة في الاكليريكية الجديدة . فطفح قلب البطريرك الانطاكي سرورًا وشكرًا وارسل اليه اربعة فتيان كانوا باكورة التلاميذ وصلوا الى القدس في ٢٥ ايار ١٩٠٣ ثم بلغوا خمسة عشر طالباً . واحتفل الخوري موسى سركيس[1] ، النائب البطريركي ، بالذبيحة الالهية اول مرّةٍ على مذبح المصلّى الجديد . وتولّى الاب غريادور أمرهم يعطف عليهم عطف الامّ على افلاذ كبدها ويعاملهم معاملة أحنّ الآباء لابنائهم . وعيّنَ لهم أساتذة افاضل تولوا تدريسهم العلوم الابتدائية وفقاً للخطّة التي نهجها لهم هو .

واتفق لي اني حججتُ القدس عام ١٩٠٣ ، وانا شماس انجيلي ، وتمهدت تلك الاكليريكية الجديدة فرحّب بي الاب غريادور بابتسامته المعروفة ، وحادثني بعبارات اوعبت قلبي هيبةً واحتراماً . وكلفني ان ألقّن تلامذته المبتدئين بعض

١) نصب اسقفاً على ابرشية حمص وحماة باسم اوسطاثيوس عام ١٩١٢ ، وانتقل الى جوار ربه عام ١٩١٨

الاناشيد السريانية تأهباً لتدشين المعهد البطريركي السرياني في القدس . فقضيت ثم اسبوعاً كاملاً . وعرفت اثناء مكوثي ضيفاً في اكواخ اولئك الآباء الاتقياء انهم يؤثرون التقتر والعزلة ، ويدمنون الصمت والصوم والقنوت لا يبرحهم أسكنوا اكواخاً ضئيلة ام اديارًا كبيرة . وصباح عيد انتقال العذراء المجيدة ، استصحبت اولئك التلامذة الى القدس ، وخدمت واياهم اول قداس احتفل به على مذبح مصلى مارافرام حضرة المونسنيور روفائيل جبري النائب البطريركي بحضور مسيو اوغست بوب (Bopp) القنصل الفرنسي الذي اشتهر بوفور غيرته على مصالح البندكتيين والسريان معاً في اورشليم .

ثابر الاب غريادور والاساتذة البندكتيون على تثقيف تلامذتهم الاولين يتجرّعون كاس الضيق المريرة لسبب قلة ذات يدهم ، ويلاحظون انهم في حاجة الى استدرار عوارف المؤمنين الفرنسيين تكميلاً لنياتهم المجيدة . ومن ثم قصد رئيسهم العام الحبر الاعظم البابا بيوس العاشر واستعطفه لانجاز مشروع سالفه فأصدر رسالة مؤرخة في ١٩ نيسان ١٩٠٤ ورد فيها ما شرحه : « اننا تلفت انظار اولادنا المؤمنين الكرام الى تلبية رغائب اولادنا الرهبان البندكتيين المحبوبين في سبيل مشروعهم المبارك في اورشليم ، ونمنح المؤسسين والمحسنين كافة البركة الرسولية . »

ونظرًا لثقة الحبر الاعظم بالاب غريادور عيّنه في ١ كانون الاول ١٩٠٧ زائرًا رسولياً للرهبنات المارونية الثلاث . فأقبل الى لبنان في كاهنين احدهما دومنكي والآخر فرنسيسي ، وجعلوا يطوفون الاديار ديرًا ديرًا ويختلون بالرهبان واحدًا واحدًا عاملين على نجاحهم وتعزيزهم بما يتخذونه من الذرائع الفعّالة تحقيقاً لرغبات ابي المؤمنين . وبعد ان انجز الاب غريادور مهمته عاد الى القدس .

وكان الآباء البندكتيون في تلك الفترة منهمكين في ترميم كنيسة ابي غوش وابتناء غرف لسكنى الرهبان . وما ان واصلوا ذلك العمل الشاق مدة ثماني سنوات حتى قيّض الله لهم ان يدشنوها باحتفال شائق في ٢ كانون الاول ١٩٠٧ ، بحضور رئيسهم العام وعشرين راهباً من رهبانهم . ونصبوا في زاوية الكنيسة رخامة نقر عليها خلاصة تاريخها وترميمها . واصبحت ابو غوش منذ ذاك

مصيفاً لتلامذتهم السريان يقضون فيها شهري العطلة السنوية . وقد حسّنها الرهبان تحسيناً محسوساً بما زرعوا فيها من ضروب الاشجار وكروم العنب والتين .

على ان الآباء البندكتيين توصلًا الى غايتهم الشريفة في تعزيز مركزهم بجبل الزيتون ، اصدروا منذ ايار ١٩١٢ مجلة في بوردو طفقوا ينشرونها مرة في كل شهرين بعنوان « رسالة البندكتيين السريانية في الشرق » (La Mission Syrienne des Bénédictins en Orient.) ويُثبتُون فيها من المواضيع ما له علاقة بالميترجية الانطاكية والملة السريانية . ولم يحجموا عن استئناف اعمالهم في نجاح الاكليريكية السريانية ، حتى اشتعلت نيران الحرب الكونية عام ١٩١٤ فاضطروا ان يغلقوها ويقصدوا فرنسة وينضموا الى السلك العسكري . وقد ذهب غير واحد منهم ضحية الوطن . وظلّ احدهم وهو الاب منصور متولياً رئاسة او حراسة الدير . اما التلامذة وكانوا ثمانية عشر ففريق منهم ، وهم المبتدئون عادوا الى بيوتهم ؛ والفريق الآخر ، وهم الكبار ، اقبارا الى دير الشرفة بامر السيد البطريرك وانجزوا دروسهم وارتقوا الى الدرجة المقدسة .

دارت الايام دورتها ، ووضعت الحرب اوزارها ، وعاد من نجا من غوائلها الى القدس عام ١٩١٩ ، فاتفق رؤساء الرهبنة على تعيين الاب انسلمس شياس لاسال للنهوض بالعمل الذي بدأوا به لِمَا رأوا فيه من الجدارة والكفاءة .

٣

الاب انسلمس شياس لاسال

رئيس الاكليريكية السريانية .

ابصر النور في ٦ ايار ١٨٨٤ ، وتلقى العلوم في مدينة پو (Pau) وانضمّ الى الرهبنة البندكتية عام ١٩٠٢ في دير بيل لوك (Bel - loc) قرب بيّون (Bayonne) . وانقل في السنة ١٩٠٥ الى اورشليم ، واكبّ اربع سنوات على درس العلوم اللاهوتية والكتاب المقدس في مدرسة الآباء الدومنكيين . وارتقى الى الرتبة الكهنوتية في ٢٥ ايار ١٩٠٧ .

وعام ١٩٠٩ يتم دير الشرفة يصحبه الاب جوليان پوياد ، وقضى عشرة شهور

مواظباً على درس العربية والسريانية . وانتهز الفرصة فضبط الاناشيد السريانية على الاصول الموسيقية . ثم عاد الى القدس وتولى التعليم في الاكليريكية السريانية اربعة اعوام . حتى اذا كانت السنة ١٩١٤ سافر الى فرنسة ، وانخرط في السلك العسكري وضم الى مصاف الممرضين . ونظراً لخبرته باللغة العربية عينته الحكومة ترجماناً ، فنهض بتلك الخدمة سنتين كاملتين بكل امانة واخلاص حتى استحق ان يكلل صدره بنوط صليب الحرب مكافأة لنيرته وامانته .

وبعد الحرب قفل راجعاً الى القدس ، وقد اناط به رؤساؤه إدارة الاكليريكية الكهنوتية عام ١٩١٩ ، وعهدوا اليه أمرها . فشمر الاب انسلمس للعمل دون كلال وبالغ في ترقيتها وحصل في زمن وجيز على ثقة صاحب النبطة البطريرك الانطاكي . فطفق يوجه اليه طلاباً من جميع الابرشيات السريانية ، فنما عددهم وازداد حتى بلغ الخمسين في يومنا .

ولفرط شغفه بالطائفة السريانية ولغتها وليترجيتها القديمة اخذ يبث هذا الروح الطيب في افئدة آباء الرهبنة ، حتى ان بعض اولئك الآباء الافاضل ، وهو الاب بونفنتور اوباك الاسباني الجليل ، احكم اللغة السريانية واتقن ليترجية البيعة الانطاكية وكتب الى الكرسي الرسولي يستأذنه في اقامة الذبيحة الالهية حسب الطقس السرياني اثناء جولة جالها في ابرشية حمص وحماة وبغداد واطراف ما بين النهرين .

وعلى رغم قيام الاب انسلمس بمهام الرئاسة في الاكليريكية الاورشليمية صرف العناية في نشر الانغام السريانية مضبوطة على الاصول الموسيقية . وكان الاب جوليوس جنّان البندكتي قد باشر العمل منذ السنة ١٨٩٧ ، اذ اقبل الى دير الشرفة بتفويض من السيد اغناطيوس بهنام الثاني († ١٨٩٧) واقام فيه زمناً طويلاً يتلقف الانغام عن كبار التلامذة ويضبطها بالنوط . ثم سافر الى الموصل وماردين في هذا السبيل وعاد الى فرنسة ولم يتهيأ له نشرها اعده منها ، حتى اقبل الاب انسلمس والاب جوليان پرياد الى دير الشرفة كما قلنا . فانصرفا الى مراجعتها وضبطها ، وعولا على نشرها في المطبعة الكاثوليكية ببيروت عام ١٩١٤ . بيد ان الحرب الكونية حالت دون انجاز رغبتهما الشريفة ، فسقط

الاب جوليان في ساحة الوغى قتيلًا ، في ١٢ تشرين الاول ١٩١٤ في كران ، ونجا الاب انسلمس وعاد الى القدس . وفي السنة ١٩١٤ نشر مقدمة علمية تاريخية في ٣٠٠ صفحة عن اصل الالحان وفصلها باسمه واسم الابوين جنّان وبرياد . استأنف نشر الالحان باجمعها على الاصول الموسيقية في تلك المطبعة ، حتى اتى عليها بعد تعب جزيل استغرق اربع سنوات ، يعاونه في ذلك كاتب هذه الحروف والاب زكريا ملكي تلميذه . واستهل الكتاب بمقدمة ذات ٢٧ صفحة تستحق الثناء والاعتبار . وبعمله هذا خلف الاب انسلمس للطائفة السريانية مأثرة جميلة ثمينة تشكره عليها شكرًا جمًّا على كرور الاحقاب .

وفي نيسان ١٩٢٥ كتب الاب يوسف ربّاني ، النائب البطريركي في القدس ، الى السيد البطريرك رحماني يستقدمه للاحتفال بوضع الحجر الاول لكنيسة مار يوسف في بيت لحم . فاغتنم الفرصة الاب انسلمس ورفع الى السيّد البطريرك عريضةً يتوسل اليه فيها ان يرقّي احد تلامذته ، وهو الشمّاس زكريا ملكي ، الى الرتبة الكهنوتية . فسافر السيد رحماني الى اورشليم مستصحباً السيد اقليميس ميخائيل بجّاش ، والخورفسقفوس انطون قرواني ، وكاتب هذه السطور ، واحتفل بطقس السيامة صباح الاحد ٣ ايار في كنيسة نوتر دام دفرنس احتفالًا شائقاً جدًّا لم نشاهد له مثيلًا . وتولّى الاب انسلمس ادارة الاحتفال والاناشيد السريانية مع جمهور تلامذته على نسق مهيب جميل مؤثر جدًّا . وبعد هذا رقي صاحب النبطة الاب يوسف ربّاني[1] الى رتبة خورفسقفوس .

وفي نواحي السنة ١٩٢٦ اوعز الكرسي الرسولي الى الاب انسلمس ان يشرف على الرهبنات الرومية الملكية الثلاث مع السيد مكسيموس صائغ متروبوليت صور ، والاب وانيس المرسل اللعازري . فغادر الاب انسلمس القدس الشريف ، واقبل الى لبنان يجول مع رفيقه الاديار الملكية ويبحث بخلاصة ما يعاينه ويسمعه الى الكرسي الرسولي . وعلى رغم تشبّثه بتلك الزيارة الرسولية كان يغدو ويروح الى القدس ، ليطّلع على احوال تلامذته وينشطهم الى مواصلة العلوم الكهنوتية . وبعد ان قام بتلك الخدمة الشريفة ثلاثة اعوام ، ناب منابه

١) ارتقى الى الكرامة الاسقفية على ابرشية حمص وحماة وتوابعها في ٢٩ ك ٢ ١٩٣٨

فيها سالفه في رئاسة المدرسة الاورشليمية اعني الاباتي غريادور الفاضل.

وقد اعرب الاب انسلمس عن عواطف احترامه واجلاله للسيد رحماني الحميد الاثر، فكان يراجعه في صعوباته ويعمل طبقاً لمشوراته. ولما انتقل ذلك الحبر الانطاكي الى جوار ربه في القاهرة في ٧ ايار ١٩٢٩ أبى الآ ان يبدي للراحل الكبير عربون معرفة الجميل، فتوجّه من القدس الى يافا في ١٥ ايار مستصحباً بعض الآباء وجمهور الاكليريكيين. وقصدوا الباخرة بيرلوتي التي كانت تقلّ جثمان الفقيد المغبوط ورتلوا هناك باجمعهم صلاة الجناز ثم ودّعوه وعادوا الى القدس. وانضمّ رئيسهم الاب انسلمس وبعض الكهنة الى زمرة القادمين من مصر، واستأنفوا السير الى بيروت، ولفظ في كنيسة مار جرجس الكاتدرائية السريانية تأبيناً بليغاً مؤثراً جداً اعرب فيه باسلوبه الفرنسي النادر عن معرفة الجميل لذلك الحبر الانطاكي النبيل وفاض لسانه بما كان يشعر به قلبه من عوامل الامتنان للسيد رحماني الذي كان السبب في انشاء المعهد الكهنوتي في اورشليم، ووصف مناقبه ومآثره النفيسة والعلمية بعبارات فصيحة بليغة.

وللاب انسلمس مواقف خطيرة في الخطب العلمية والرياضات الدينية التي اعتاد القاءها في عدة معاهد وكنائس واديار لا في المدينة المقدسة فحسب بل في انحاء القطر المصري ايضاً. فهو يختلف الى ذلك القطر مراراً في السنة ويضرم افئدة المؤمنين باججج كلام الله ويمهد لهم السبل البلوغ الى الغاية القصوى.

كبرت الآمال بنجاح الاكليريكية السريانية في اورشليم على يد رئيسها الاب انسلمس المهام. ولما استلم عصا البطريركية الانطاكية سيدنا اغناطيوس جبرائيل الاول عام ١٩٢٩، وعوّل على تعزيز اكليريكية دير الشرفة انتدب الاب انسلمس وكاشفه في ضمّ الاكليريكيتين الى اكليريكية واحدة. فما كان من الرئيس الا ان كتب الى الاب العام في الامر. وتمّ الاتفاق اخيراً بين صاحب الغبطة وبينه على ان تخصص اكليريكية القدس بالعلوم الثانوية، واكليريكية دير الشرفة بالعلوم الفلسفية واللاهوتية. وهكذا انتقل كبار الاكليريكيين من القدس الى دير الشرفة في ايلول ١٩٣١. وتولّى تعليمهم اربعة من اشهر الآباء البندكتيين علماً وفضيلة يسيرون باجمعهم وفقاً للخطة التي اختطها لهم الاب انسلمس

بالاتفاق مع الحبر الانطاكي ورئيس البندكتيين العام. وجعل منذ ذاك يختلف الى دير الشرفة احياناً يفحص التلامذة ويقف على حالتيهم الروحية والعلمية.

وعلاوة على ذلك كله، فقد كلفه السيد البطريرك ان يجب الى بعض التلامذة روح العيشة النسكية وفقاً لقوانين الرهبنة البندكتية لما يُرجى من ذلك من الفوائد العائدة الى نجاح الملة ورقيها.

وقد خرج من الاكليريكية الاورشليمية حتى اليوم احد عشر قسيساً. وقريباً ان وفق الله، اعني في حزيران الحاضر، سيرقي صاحب النيطة ستة شمامسة من تلامذة الاب انسلمس الى الرتبة الكهنوتية في دير الشرفة.

اما الآباء الكهنة السريان الذين تولوا تعليم السريانية والعربية في الاكليريكية الاورشليمية تحت ادارة رئيسيها الاب غريادور والاب انسلمس الفاضلين فهم: الاب انطون مطلوب (١٩٠٥ — ١٩٠٨)، والاب عبد المسيح زهر (١٩٠٨ — ١٩١٣)، والاب بولس سباط (١٩١٣ — ١٩١٤) والاب يوحنا مستكاوي (١٩١٩ - ١٩٢٦) والاب زكريا ملكي (١٩٢٦ - ١٩٣٢) والاب يوحنا عزو (١٩٣٠ — ١٩٣٢) وما برح اولئك الاساتذة وتلامذتهم يلهجون بالثناء على ما تجشمه ويتجشمه هذا الاب الغيور في سبيل تعزيز المعهد الاكليريكي الاورشليمي من الاتعاب والمشقات التي لا يدفعه اليها الا روحه الطيب وروح رهبنته المجيد.

* * *

تلك عاطفة اخلاص املاها عليّ الولاء والوفاء لاثبت في هذه العجالة بعض مآثر الرهبنة البندكتية، ومزايا هذا الاب المفضال الذي تربطني به صلات متينة منذ نيف وعشرين سنة. وقد عرفه تلامذته، كما عرفته انا، أباً مفعماً حباً وبشاشة ورئيساً موعباً غيرة ورزانة. فحملهم البرّ البنوي على نشر «نداء» بامضاء احدهم اعني الاب يوحنا مستكاوي، النائب البطريركي في القدس، يدعون رؤساء الملة السريانية واكليرسها واعيانها ليشاطروهم ابداء عواطف الامتنان والشكران لهذا الاب الورع التقي. وحسبه انه فرعٌ من فروع تلك الدوحة البندكتية المباركة التي تفيأ ابناء الكنيسة المقدسة منذ اربعة عشر قرناً بوريف ظلال اجبارها وملافنتها المعظمين وقديسيها ورهبانها الصالحين.